

الحداثة في فكر عبد الله شريط

بن دحمان حاج

أستاذ وباحث من جامعة غليزان

bendahmane. hadj@gmail.com

الملخص:

تفاعل المثقفين العرب مع كل المفاهيم التي ينحتها الفكر الغربي، وكأن الغرب هو بوصلتهم الفكرية الوحيدة، وبالتالي يعالجون قضايا مجتمعاتهم ويحللون على ضوء مدلولات هذه المفاهيم. لقد انقسم الفكر العربي الحديث إلى عدة تيارات علمانية، إصلاحية، وليبرالية وغيرها وهذا وفق تعاملهم مع مفاهيم غربية مثل مفاهيم "النهضة" و"التقدم" و"التنوير". أما أبرز مفهوم عالجه الفكر العربي المعاصر فهو مفهوم "الحداثة"، بحيث نجد كل كتابات المفكرين العرب في هذه الحقبة تدور ولا زالت في فلك الحداثة، سواء في المشرق العربي مع كل من علي حرب أو الطيب تزييني أو نصر حامد أبوزيد وغيرهم، أو في مغربه مع كل من الجابري وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن وغيرهم في المغرب الأقصى، أما في الجزائر فإننا نجد المفكر الجزائري عبد الله شريط قد تفاعل مبكراً مع هذا المصطلح في كتاباته، أي أنه قد عالج قضايا مجتمعه برؤية حداثة، تتجسم مع مدلولات وأبعاد هذا المصطلح كما تبلورت في الغرب.

الكلمات المفتاحية: الحداثة؛ الفكر؛ عبد الله شريط.

إن المثقفين العرب يتفاعلون دوماً مع كل المفاهيم التي ينحتها الفكر الغربي، وكأن هذا الغرب هو بوصلتهم الفكرية الوحيدة ويتعاملون مع هذه المفاهيم حسب توجهاتهم الفكرية والعقائدية، وبالتالي يعالجون قضايا مجتمعاتهم ويحللون على ضوء مدلولات هذه المفاهيم. لقد انقسم الفكر العربي الحديث

إلى عدة تيارات علمانية، إصلاحية، وليبيرالية وغيرها وهذا وفق تعاملهم مع مفاهيم غربية مثل مفاهيم "النهضة" و"التقدم" و"التنوير". أما أبرز مفهوم عالجه الفكر العربي المعاصر فهو مفهوم "الحداثة"، بحيث نجد كل كتابات المفكرين العرب في هذه الحقبة تدور ولا زالت في فلك الحداثة، سواء في المشرق العربي مع كل من علي حرب أو الطيب تزييني أو نصر حامد أبوزيد وغيرهم، أو في مغربه مع كل من الجابري وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن وغيرهم في المغرب الأقصى، أما في الجزائر فإننا نجد المفكر الجزائري عبد الله شريط(**) قد

(**) - أحد المؤسسين للخطاب التنويري والعقلاني في الجزائر و أحد مؤسسي جامعة الجزائر المستقلة وهو أيضا أحد الإعلاميين الكبار الذين كونتهم الثورة الجزائرية بثقلها الوطني والإقليمي والدولي. ولد عبد الله شريط ببلدية مسكانة بأم البواقي بالشرق الجزائري 1921، التحق في صباه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم، وبدأ تعليمه الابتدائي بمدرسة فرنسية في مسكينة عام 1927 م . انتقل بعد ذلك إلى تبسة عام 1932 م وهناك درس بمدرسة جمعية العلماء " تهذيب البنين" على يد الشيخ العربي التبسي مدة سنتين (1932 - 1934). توجه إلى تونس سنة 1938 ودرس فيها سنة واحدة، ثم توقف بسبب الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى قسنطينة والتحق ببعض مدارسها. ولما انتهت الحرب سنة 1945 عاد مرة أخرى إلى تونس وانهي دراسته بجامعة الزيتونة و نال شهادة التطويع سنة 1946 م. سافر إلى المشرق عن طريق فرنسا سنة 1947 م بجواز سفر مزور، وهناك التحق بكلية الآداب قسم الأدب العربي، لكن تحول إلى قسم الفلسفة بنفس الجامعة وقد تخرج منها بشهادة الليسانس في الفلسفة سنة 1951 م. التحق سنة 1955م بالبعثة السياسية لجهة التحرير الوطني التي تشكلت بعد اندلاع الثورة أسندت له مهمة الترجمة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية. وقد كلف بعد إصدار جريدة " المقاومة" و جريدة " المجاهد" لسان حال جبهة التحرير الوطني بتحرير بترجمة المقالات المنشورة في الصحافة الدولية عن الثورة الجزائرية و ظل يمارس هذه الوظيفة حتى فجر الاستقلال سنة 1962م. التحق بعد الاستقلال بجامعة الجزائر أستاذًا بقسم الفلسفة وظل بها إلى آخر يوم في حياته. لقد وافته المنية يوم 09 - 07 - 2010. للمفكر عبد الله شريط مؤلفات في حقول معرفية مختلفة في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع والسياسة و الصحافة وغيرها، بلغ عددها ستة عشر (16) منها: - الجزائر في مرآة التاريخ 1965 - الفكر

تفاعل مبكراً مع هذا المصطلح في كتاباته، أي أنه قد عالج قضايا مجتمعه برؤية حدائية، تتجسم مع مدلولات وأبعاد هذا المصطلح كما تبلورت في الغرب. وهنا يحق لنا أن نتساءل: كيف عالج المفكر عبد الله شريط ذا التكوين الديني قضايا المجتمع الجزائري ما بعد الاستقلال بصفة خاصة والمجتمع العربي بصفة عامة برؤية حدائية؟ وهل هو من أنصار الأصالة أم المعاصرة أم يمسك العصا من وسطها؟

قبل التطرق إلى توضيح الرؤية الحدائية في كتابات المفكر عبد الله شريط، علينا أن نوضح أولاً ماذا يعني مفهوم الحدائية؟ وكيف تشكل في الغرب؟ وكيف تلقفه ووظفه الفكر العربي المعاصر؟.

مفهوم الحدائية: سنقتصر على التعريف الاصطلاحي فقط، حيث من الصعوبة البالغة ضبط مدلول الحدائية اصطلاحاً كما يؤكد جل الباحثين و"هذا لسببين هما:

أ - تشعب المجالات التي يتردد عليها هذا المصطلح، كونه مرتبطاً بالفكر، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والثقافة، ومختلف مناحي الحياة.

الأخلاقي عند ابن خلدون 1975 - حوار إيديولوجي حول المسألة الصحراوية والقضية الفلسطينية 1982 - مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الأيديولوجي في الجزائر 1986 - معركة المفاهيم 1981 - المنابع الفلسفية في الفكر الاشتراكي 1976 - من واقع الثقافة الجزائرية 1981 - = نظرية حول سياسة التعليم والتعريب 1984 - حوار إيديولوجي مع عبد الله العروي وصدرت له موسوعة ضخمة حول الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية.

ب - اختلاف الرؤى والمواقف والآراء بين المفكرين والباحثين حول الأصول التاريخية لهذا المصطلح، والظروف التي أحاطت بنشأته وتطوره⁽¹⁾.

وكذلك يرجع المفكر المغربي طه عبد الرحمن التباين والاختلاف الحاصل في التعاريف المقدمة للحادثة إلى خاصيتين هما التحقيق ولتوسيم، بمعنى أن هناك تعاريف تعتمد على التحقيق الزمني لها وهؤلاء الذين يعتمدون على "التحقيق" فهم يختلفون فيما بينهم، فمن قائل أنها تمتد على مدى خمسة قرون كاملة^(*)، إلى قائل أن لا حادثة إلا بعد الثورة الفرنسية. أما التعريف القائم على "التوسيم" أي بصفات طبعة بقوة عطاء هذه الحقبة"، فإن القائلين به قد اختلفوا هم أيضاً، بين قائل أنها عهد استياد الإنسان على الطبيعة وجعلها له ذلولة، وبين آخر يقول أنها عهد محو صفة القداسة عن العالم بتعقله التعقيل كله الذي لا يترك حظاً للسحر أو الأسطورة أو الديونة.

إن الصعوبة في تعريف الحادثة تكمن في كونه مصطلح واسع يشير إلى مذاهب وآراء وممارسات نقدية في الدين والأدب والمعمار والمجتمع، وتتطوي الحادثة في الغرب خاصة على رفض التقليد ومحاولة إلغاء الماضي والبحث عن اتجاهات ورؤى جديدة تلغي الميتافيزيقا وتؤكد دور الفرد. ولهذا نجد المفكر جان بودريار يعرفها بقوله: "ليست الحادثة مفهوماً

(1) - بو زبرة عبد السلام، طه عبد الرحمن ونقد الحادثة الغربية، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص26 - 27.

(*) - هناك بعض الباحثين يرجعون بداية تشكّل الحادثة إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ويسمّون هذه الفترة بالحادثة المبكرة التي تمثل إرهاصات للحادثة المتأخرة.

سوسيولوجياً، أو مفهوماً سياسياً أو مفهوماً تاريخياً بحصر المعنى، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تُعارض صيغة التقليد.... ومع ذلك، تظلُّ الحادثة موضوعاً يتضمن في دلالاته إجمالاً الإشارة إلى تطور تاريخي بأكمله، وإلى تبدل في الذهنية⁽²⁾، نستنتج من خلال أن الحادثة هي ضد التقليد بكل أشكاله وفي كل المجالات خاصة في القيم والتقاليد وحتى في طرائق التفكير، فهي حرب على كل الموروثات والمسلّمات التاريخية من الأفكار والتصورات، سواء كانت سماوية أو من إنتاج الفكر البشري.

إذا كانت الحادثة ضد التقليد والجمود، فهي إذن دعوة إلى التطور والتفتح على الجديد الآتي وفي هذا المعنى يعرف جون ماري دوميناك الحادثة بقوله: "الحادثة تعني إتاحة التطور والتفتح لكل الإمكانيات والاحتمالات، من أجل أن يتمكن الفرد من التمتع بها. إنها تعني تنمية القوى المنتجة وتنمية الوعي بالذات، وفي نفس السياق معاشة كتحريير كبير وكمنحة، ومن هنا نتجت تلك الرؤية السعيدة عن الحادثة"⁽³⁾. إن الحادثة حسب هذا المنظور الذي يقدمه جون ماري دوميناك كأنها بوابة ينفّث من خلالها الإنسان على الكثير من المفاهيم المجاورة مثل التقدم، والتطور، والتحرر، وغيرها والتي "تمثّل شروطاً لهذا الوعي الذاتي، الذي يصبو إلى سيادة الإنسان على الطبيعة والمجتمع، وفي رغبته المستمرة في

(2) - محمد برادة، اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحادثة، مجلة فصول، ع4،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984، ص 12.

(3) - طيب تزيني، الإطار النظري والمفاهيمي، من ندوة: الحادثة وما بعد الحادثة،

منشورات جامعة فيلادلفيا، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص35.

التغيير، وفي استشراف آفاق مستقبله الواعدة⁽⁴⁾. إن الدارس لمفهوم الحادثة يجد أن هناك قدر من التعارض والتقاطع في نفس الوقت بين مفهومي "الحادثة" و"التحديث". فالتعرض يكمن في أن فالمفهوم الأول، مفهوم الحادثة، يتخذ بنية فكرية جامعة للقسمات المشتركة بين المستويات - (تقنية، اقتصادية، سياسية، اجتماعية، إدارية، ثقافية، فلسفية وغيرها) - من خلال "منظور أقرب ما يكون إلى المنظور البنيوي، بينما يكتسي مفهوم "التحديث" مدلولاً جدلياً منذ البداية من حيث أنه لا يشير إلى القسمات بقدر ما يشير إلى الدينامية التي تقتحم هذه المستويات، وإلى طابعها التحولي"⁽⁵⁾. أما التقاطع فيمكن في اللبس الحاصل حول العلاقة بينهما، وهذا راجع إلى تداخلهما، حيث استعمل المصطلحان في الكثير من الدراسات المهمة بشأن الحادثة على أنهما من طبيعة واحدة.

ظروف نشأة الحادثة الغربية وأسسها

تتجلى الحادثة من خلال تلك النهضة التي شهدت أوروبا، هذه النهضة التي يمكن القول أنها "انبثقت أول الأمر في إيطاليا منذ أوائل القرن الرابع عشر تقريباً، واستمرت حوالي قرنين من الزمن، وكان من أهم خصائص النهضة الأوروبية في إيطاليا هو التحرر من سلطة الكنيسة ورجال الدين، ومن قواعد الأخلاق المتفق عليها ومن الفلسفة المدرسية التي أتت على العصور الوسطى.

إن الحديث عن ظروف نشأة الحادثة يدفعنا إلى الإشارة، ولو بشكل موج إلى جملة من الأحداث البارزة التي بشرت بقدوم

(4) - بو زبرة عبد السلام، مرجع سابق، ص 29.

(5) - محمد سبيلا، الحادثة وما بعد الحادثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2007، ص 7.

وظهور الحداثة في ظل العصر الحديث وعملت على تجسيدها كواقع ملموس وهي ما تسمى بعوامل النهضة الحديثة وهي:

- المخترعات الحديثة وأهمها ظهور آلة الطباعة على يد غوتنبيرغ بين 1450 و 1452، ودورها في نشر العلم والثقافة بين أفراد الشعب لتسهيل عملية خدمة الثورات العلمية.
- الاكتشافات الجغرافية الكبرى وأهمها اكتشاف كريستوف كولومبوس لأمريكا عام 1492 حيث اعتبرها البعض الخطّ الفاصل بين الأزمنة الوسيطة و الحديثة، لما ترتّب عليها من انفتاح جغرافي رهيب.
- سقوط القسطنطينية على يد الأتراك عام 1453 وهجرة عدد كبير من العلماء إلى إيطاليا خاصة، مزودين بمنظومتهم الفكرية، وهناك تعاونوا على بعث الثقافة اللاتينية وتطويرها في قالب جديد كان نواةً للنهضة الأوروبية.
- ظهور حركات أدبية نشيطة في إيطاليا وعلى رأسها الحركة الإنسانية، وهي حركة تضع الإنسان فوق كل القيم. لقد كانت تمهيداً فكرياً لمعظم الثورات التي قامت في أوروبا وكانت موجهة للفلسفة الدينية والأخلاق والإقطاعية، ومن هنا كان مطلبها الحرية وترأس هذه الحركة كل من بطروكوس وبوكاسيو بإيطاليا ومونتاني بفرنسا وإيراسموس بهولندا وطوماس مور ببريطانيا.
- كل هذه الأحداث كان بمثابة الأرضية الخصبة التي ساهمت بشكل مباشر في إحداث تغيير على خريطة الفكر الأوروبي، وكانت بمثابة شعاع الأمل أو النور الذي فتح الأبصار لبسط النفوذ فيما بعد من أجل السعي إلى تحقيق شهيات العقل دونما المبالاة بالقيود.

فالحداثة بذلك حركة " فكرية وُلدت ونمت داخل التراث الأوروبي، وارتبط ظهورها بوضع تاريخي معين يمثل الأصل الذي لا غنى لأيِّ باحث من الرجوع إليه لتقصّي حقيقة السياق الذي برز من خلاله هذا المصطلح، وأيُّ محاولة لنقل هذا المصطلح إلى خارج أرض المولد والنشأة مخاطرة قد تجرُّ بصاحبها إلى الوقوع في مأزق التبعية الفكرية"(6).

سمات الحداثة الغربية

يمكن تلمس سمات الحداثة الغربية من خلال سمات عديدة، لكن سنقتصر على بعضها فقط في هذه المداخلة وهي:

- إذا كنا قد ذكرنا أن الحركة الأدبية النشطة التي ظهرت في إيطاليا هي التي ولدت لنا الحداثة فإن الحداثة لا تقتصر على الجانب الأدبي فحسب، بل إن خطاب الحداثة يعمُّ ويشمل جوانب حياة الإنسان كافة، اجتماعية كانت، أو فكرية، أو صناعية أو غيرها، وحول هذه الفكرة نجد محمد سبيلا يقول: "إن كل التحولات الجذرية الكميّة والكيفيّة في مفهوم الكون، والزمن، والحركة، والمكان، والإنسان، والمجتمع، والتاريخ، والنفس، والدولة التي جاءت بها الحركة الشاملة للحداثة التي شكلت العلوم - بما في ذلك العلوم الاجتماعية والإنسانية - رأس حربتها، فالحداثة الفكرية هي بمثابة الروح في كل هذه الحداثات"(7).

- إن الحداثة مشروع فكري أساسه العقل والعقلانية، فالعقل المتحرر من كل سلطان هو معيار أهل الحداثة.

- الحداثة خطاب فلسفي ينكشف من خلال انشغال الفلاسفة " بقضايا المعرفة، والحرية، والسلطة، و الحوار، والرغبة،

(- بو زبرة عبد السلام، مرجع سابق، ص 34.)⁶

(⁷ - محمد سبيلا، مرجع سابق، ص 19.

والإرادة، يجعل منهم حدثيين بالضرورة، لأن هذه الحادثة تدخل في صلب الحادثة الفكرية"(8).

- الحادثة ثورة على كل قديم مقدس أو غير مقدس، ديني أو دنيوي " فالحادثة في جوهرها عملية انتقالية تشتمل على التحول من نمط معرفي إلى نمط معرفي آخر يختلف عنه جذرياً، وهي انقطاع عن الطرق التقليدية لفهم الواقع، وإحلال أنماط معرفية وفكرية جديدة"(9).

أسس الحادثة الغربية: لقد تأسست وتشكلت الحادثة الغربية على مدار مسارها الطويل على ثلاث مفاهيم أساسية وهي:

أ - **العقلانية:** (Rationalité) إن الفكر الفلسفي المناخ الكلاسيكي الغربي قد أسس أحداثه بمحاولة إعادة الاعتبار إلى العقل، واعتباره مفتاح الحقيقة. لقد أصبح العقل مفتاح لكل نشاط علمي ومرجعاً لكل معرفة. فالعقلانية هي " قبل كل شيء حقل تنظم فيه معارفنا وتتحد تدخلات الإنسان لفهم الطبيعة والحياة فهماً يقترب من حقيقة واقعها"(10). وقد ترتب عن القول بالحادثة الغربية، عقلنة جميع مناحي الحياة عقلنة القول العلمي، القول الفلسفي، القول التاريخي، القول الديني).

ب - **الذاتية:** (La Subjectivité) إن الحادثة في معناه القريب والمباشر هي إبلاء الأولوية للذات " كونها استعادت ثقة الإنسان في فكره وحقه وملكه ومسؤوليته، إذ وجد الإنسان

(8) - بو زبرة عبد السلام، مرجع سابق، ص 38.

(9) - هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر: ماهر

شريح، دار نلسن، السويد، ط4، 2000، ص 39.

(10) - فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحادثة، مركز الإنماء القومي،

بيروت، لبنان، 1992، ص 28.

المتعة لا في ما قرّره التقليد، أو فتى به القسّ، أو أمر به القوم، وإنما في أعماله بما هو فرد ذو طبيعة حرة عاقبة"(11).

ج - الحرية: (La Liberté) إن الحرية تمثل الأساس الثالث من أسس الحداثة الغربية، لأنها جعلت الإرادة البشرية أساس بناء المجتمع والدولة الحديثة. فالحرية في الفكر الحداثي هي "جوهر الكائن البشري، وغاية وجوده، وهي شرط لتحقيق الكمال والخلق الذاتي. بل أكثر من ذلك، فهي الشرط الضروري للحصول على مشروعية الفعل الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي... إلخ"(12).

الحداثة في فكر عبد الله شريط

هذا باختصار شديد جداً مفهوم الحداثة وظروف نشأتها في الغرب، وكذلك الأسس التي قامت عليها، والآن نتطرق إلى تجليات الحداثة في فكر المفكر الجزائري المعاصر عبد الله شريط (1921- 2010) من خلال مؤلفاته العديدة التي دافع فيها الرؤية الحضارية الحداثية التي تشبع بها من خلال قراءاته الغزيرة والعميقة للفكر الغربي والإسلامي على حد سواء، باعتباره أحد المؤسسين للخطاب التنويري والعقلاني في الجزائر وأنه من المؤسسين للجامعة الجزائرية المعاصرة، وعمل لسنوات كأستاذ جامعي بقسم الفلسفة، أي أنه كان دائماً على اتصال بالفكر الغربي دراسة وتأطيراً. فمن الطبيعي إذن أن نجده في كتاباته ومقالاته الصحفية يدافع صراحة أو ضمناً عن أسس الحداثة الغربية، أي يدعو إلى الاحتكام إلى العقل، وإلى التقيد بالروح العلمية، خاصة الموضوعية، في تحليل القضايا الفكرية بدون تعصب أو تحيز، كما دعا إلى

(11) - بو زبرة عبد السلام، مرجع سابق، ص 47.

(12) - بو زبرة عبد السلام، مرجع سابق، ص 50.

التفتح على فكر الآخر ونبذ الجمود والتفوق على الذات أو على التراث. والجدير بالملاحظة أن منهج المفكر عبد الله شريط في تحليل ودراسة المسائل الفكرية هو منهج الاعتدال والوسطية، فهذا المنهج قد وسم كتابات عبد الله شريط بميسمه، وحول هذا المنهج في البحث والدراسة نجد الأستاذ موسى معيرش يلاحظ أن كتابات هذا المفكر يغلب عليها المنهج الجدلي الذي يعرض دائماً للفكرة ونقيضها محاولاً الوصول إلى توفيق، وإن كان الأستاذ معيرش قد لاحظ كذلك أن المفكر عبد الله شريط يحاول دوماً الاسترشاد بابن خلدون أستاذه والذي كتب عنه في مجالات متعددة وتأثر به سواء أكان ذلك في ما يتعلق بفكره الأخلاقي بحكم أن أطروحة عبد الله شريط لنيل شهادة دكتوراه دولة في الفلسفة كانت حول "الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون"، أو في ما يتعلق بفكره السياسي الذي كان موضوعاً لأحد كتبه. حتى في توجهه السياسي لم يكن واضح المعالم حيث يقول عنه المفكر والمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله، وذلك في معرض شهادته حول عبد الله شريط، أنه لم يكن قومياً ولا بعثياً ولكنه كان وطنياً ملتزماً بوحدة الوطن وثوابته، فما هي القضايا الفكرية التي عالجها المفكر عبد الله شريط، وكيف تقيّد في هذه المعالجة بأسس الحداثة بالمنظور الغربي؟.

لقد خَلّف لنا الاستعمار الفرنسي عند رحليه عن الجزائر عام 1962 مشاكل لا حصر لها في جميع الميادين فكرية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية، ولكن الله تعالى قيّض لهذه الأمة مثقفين ساعدوها على تخطي هذه المرحلة المصيرية والحاسمة من تاريخها المعاصر، وذلك بما امتازوا به من رجاحة عقل وبُعد نظر وبما استعانوا به من أدوات المنهج

العلمي في الأخذ بيد الأمة إلى برّ الأمان، ومن بين هؤلاء نجد المفكر عبد الله شريط.

الحداثة وقضية التعريب(*)

بعد التعرف على السمات العلمية ومنهجية التفكير التي نلمسها في مؤلفات المفكر عبد الله شريط، يمكننا الآن أن نتطرق إلى تحديد موقفه من قضية التعريب، وسيكون لهذه القضية حصة الأسد من هذه المداخلة لأنها القضية الأولى في فكر عبد الله شريط، باعتبار أنها أم المشكلات والقضايا التي طفت إلى السطح بعد رحيل المستعمر، وقد ناضل هذا المفكر من أجل

(*) - إن التعريب في اللغة العربية مشتق من "عَرَبَ يَعْرَبُ تعريباً" ولقد "درج العرب منذ خروجهم من الجزيرة العربيّة في القرن الأوّل للهجرة على نعت الشعوب التي دخلت للإسلام بـ " الشعوب المعرّبة أو تحديداً بـ " المستعربة"، وهذا في مقابل الشعوب العاربة أي ذات الأصل العربي القحّ". وهناك من يقابل بين التعريب والتعجيم، فالتعريب يقصد به النقل إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية، بينما يقصد بالتعجيم النقل من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية. والتعريب نوعان: " التعريب اللساني و يقصد به استعمال العربية ألفاظاً أعجمية على طريقتهم في اللفظ والنطق فيحافظون على أوزان العربية والإيقاع العربي بما يطبعها بالطابع العربي، وهناك التعريب الاجتماعي الشامل الذي يشير إلى سيادة الفكر العربي والقيم العربية، فضلاً عن سيادة استعمال اللغة العربية في مختلف مجالات الحياة الإدارية والعلمية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولقد أنشأت أربعة مجامع لترجمة المصطلحات الأجنبية ونقلها إلى اللغة العربية وهذه المجامع هي: مجمع دمشق في 1919، مجمع القاهرة في 1932، مجمع بغداد في 1948، ومجمع عمان في 1976. و نظراً لأهمية التعريب أقيمت عدة مؤتمرات لمعالجة قضية التعريب: في الرباط في 1961، وفي الجزائر في 1973 و في طرابلس في 1975. وللتعريب أبعاد عديدة أهمها: 1- اثراء اللغة العربية بانفتاحها على كل المتغيرات الاجتماعية و العلمية. 2- التعريب مطلب أساسي لاستيعاب المعرفة المتسارعة المتجددة. 3-إن التعريب فيه قطع الطريق على الغزو الأجنبي للغتنا وعقولنا و حياتنا 4- إن استرداد ثقة الإنسان العربي في لغته هي نقطة البداية في استرداد ثقته في ذاته ومؤسساته فلا بد له أن يؤمن بقدرة لغته الأم على تلبية مطالب العصر و ذلك بتعريب نظم الكمبيوتر والمعلومات واستخدام اللغة العربية في البرمجيات المتقدمة.

أن يدلو بدلوه في هذه القضية، ولكن بمنهجية قلما نجد لها نظيراً. فنحن نورد موقفه من هذه القضية كدليل على المنهج الحدائي الذي استعمله في معالجتها.

في كتابه المعنون بـ "نظرية حول سياسة التعليم و التعريب" الذي صدر سنة 1984م يؤكد فيه المفكر عبد الله شريط على أن التعريب في بلادنا ظل سنوات طويلة، و يقصد هنا سنوات الستينات، موضوع نقاش بين طرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيهاً، كما قال بنقاش الصم لا يسمع بعضهم بعضاً وهذا دلالة على تعصب كل تيار إلى موقفه من هذه القضية، ولكن المؤكد حسبه أنه "لم يحصل نقاش هادئ بين معربين ومفرنسين في قضية التعريب بالخصوص، وما يكتنفها من جوانب وما تمتد إليه من أبعاد حضارية وسياسية وفكرية بالخصوص. فبقيت قضية يُقنع فيها المعربون معربين أمثالهم، و المفرنسين مفرنسين مثلهم، بحجج عاطفية في الغالب لدى الطرفين مدفوع فيها الجميع عن وعي وعن غير وعي بما يتوهمه مصلحة عامة"⁽¹³⁾. لكن هذا النقاش الأبكم والمبهم، كما يصفه، أدى إلى ضياع المصلحة الوطنية بسبب استغلال أطراف أجنبية هذه الهوة بين الطرفين وزادتها عمقا واتساعاً، وفي هذا المقام يقدم المفكر عبد الله شريط رؤيته حول هذا النقاش الذي يجب أن يكون في نظره بين أشقاء لا بين أعداء، وأن "يخاطب فيه أحد الطرفين الطرف الآخر بوصفه أخاً يخاطب أخاه في قضية عائلية ورتناها جميعاً عن ظروف تاريخية فرضت علينا فرضاً ولم يكن لنا فيها حيلة"⁽¹⁴⁾ وذلك

(13) - عبد الله شريط نظرية حول سياسة التعليم و التعريب، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، 1984 ، ص 6.

(14) - المصدر السابق، ص 7 .

من أجل تغليب المصلحة الوطنية. وهذا الموقف في رأيي يعكس مدى تقديده بالمنهج العلمي القائم على الموضوعية وتجنب التسرع في إصدار الأحكام والتعصب للمواقف قي قضايا مصيرية.

أما في كتابه الآخر الذي صدر سنة 1981 م بعنوان " من واقع الثقافة الجزائرية" الذي يضم مجموعة بحوث ومقالات كتبت بين 1968 و 1970م وهي تعالج قضايا وتطرح مشكلات من واقع الثقافة الجزائرية كما عاشها في فترة ما بعد الاستقلال إلى غاية نشر هذه البحوث والمقالات وهو في تطرقه لهذه القضايا يحاول تشخيص العلل ووضع الأصبع على الداء، أكثر مما يحاول تقديم الدواء والحلول "لأن خطر أمراضنا في مرحلتنا الراهنة هو أننا نعيشها ولا نشعر بها"(15).

وإذا تساءلنا مع المفكر عبد الله شريط لماذا الثقافة ؟ فإنه هو الذي يتولى الإجابة عن هذا التساؤل في مقال في آخر هذا الكتاب يحمل عنوان " لماذا العربية " فيرى أن الدولة الجزائرية الفتية بعد أن فرغت من الثورة الصناعية والتي تلتها الثورة الزراعية يأتي الدور الآن على الثورة الثقافية " أي ثورة التعريب، لأن الثقافة كما قال وزير الإعلام أحمد طالب الإبراهيمي، هي التعريب، والتعريب هو الثورة الثقافية، ولأنه بعد 5 - 7 - 1975م ينتهي العمل بالقانون الفرنسي ويحل محله قانون جزائري مائة في المائة"(16). إن الثورة الثقافية غرضها التصدي للغزو الثقافي الذي اشتدّ بعد الاستقلال وقويت شوكته، " ذلك أن الاستعمار بعد أن خرج بجنوده أراد

(15) - عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 6.

(16) - عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، مصدر سابق، ص 183.

أن يبقى فكره و تبقى ثقافته وآراءه. ولا نغالي إذا قلنا إن هذه ظاهرة عامة في كافة البلدان التي ابتليت بالاستعمار في العصر الحديث، لكنها في الجزائر والمغرب العربي عامة، اتخذت طابعاً منظماً مدروساً تسنده جهات رسمية تخطط وتعمل له بدأب لإبقاء الفكر والثقافة الأجنبيةتين بدعوى التفتح والمعاصرة، وما إلى ذلك من الصيغ التي تحمل في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب"⁽¹⁷⁾، كما يكشف الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في إحدى مقالاته " بأن هدف الاستعمار لم يكن يهدف إلى خنق العربية ومحو الشخصية الجزائرية وإحلال الفرنسية محلها فحسب، بل أيضا يرمي إلى الجهل وإسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها على العالم العربي والعالم"⁽¹⁸⁾.

إن المفكر عبد الله شريط يفتتح سلسلة مقالات هذا الكتاب و بحوثه، نقصد به كتاب " من واقع الثقافة الجزائرية"، بمقال عنوانه " المعركة بين الإعراب والتعريب"، فما يشد انتباهنا إلى هذا العنوان هو مصطلح "المعركة" ففي نظره أن قضية التعريب هي معركة مقدسة، فإذا كانت المعارك العسكرية تحتاج إلى سلاح وتخطيط وتكاتف وتآزر بين الجنود وإلى إرادة قوية في النجاح وإلى الوعي بالأخطار المحدقة حولها فإن معركة التعريب تحتاج هي الأخرى إلى كل ذلك، بل وأكثر.

(17) - عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أولا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،

1986، ص 6.

(18) - مولود قاسم نايت بلقاسم، مجلة الأصالة و تصدرها التعليم الأصلي و الشؤون

الدينية، العدد 17 ، جانفي 1974.

ففي بداية هذا المقال يخص الحديث فيه عن المثقفين بالعربية، لأنه من جهة أولى هو، أي عبد الله شريط، واحد منهم بحكم ثقافته العربية الإسلامية، وأحد تلامذة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأحد خريجي جامع الزيتونة، ومن جهة ثانية إن المثقفين بالعربية هم المعنيون بالدرجة الأولى بهذه القضية وعلى عاتقهم تقع مسؤولية تعريب المؤسسات الإدارية والتربوية وغيرها. وإذا أردنا أن نتحدث باللغة العسكرية فهم القادة والجنود الذين يديرون هذه المعركة بإحكام.

إن عملية التعريب في نظره عملية معقدة وليست سهلة كما يعتقد البعض، وعليه إذا أريد أن يكتب لها النجاح عليها أن تمر بمرحلتين وكل مرحلة تتطلب جهداً مضني من النقاش والحوار بين المثقفين بالعربية وحتى المتحمسين لهذه القضية، فالمرحلة الأولى هي مرحلة الحديث عن التعريب من حيث المبدأ وهي مرحلة تمهد للثانية والثالثة هي مرحلة الحديث عن التعريب من حيث التطبيق. فهو يتساءل هل انتهينا من مرحلة الحديث عن التعريب من حيث المبدأ لكي نمر إلى مرحلة النقاش عن وسائل التطبيق؟ والصعوبة التي يحاول أن ينقلها إلينا أنها تكمن في أن المرحلة الثانية متوقفة على الأولى، بحيث إذا نجحنا ووقفنا في نقاشنا حول التعريب من حيث المبدأ ومعياري النجاح في هذه المرحلة الأولى يقاس بمدى تهيئة الجو النفسي والوطني لهذه القضية وإخراج المترددين والخائفين من تردددهم وخوفهم وزرع الحماس في نفوس من لم يكونوا يحملون شيئاً من هذا الحماس حول هذه القضية، أي تهيئة العواطف التعريبية في الشعب وذلك بالمقالات الصحفية وبالمحاضرات وبالأحاديث والنقاشات، فإن النجاح سيكون بعد ذلك ممكناً في مرحلة التطبيق، أما " إذا كنا نتحدث عن

التعريب من حيث المبدأ، ونحن نشعر شعورا غامضاً أو واضحاً بأن مجرد هذا الحديث عن المبدأ سيجعل التعريب، عندما يدخل مرحلة التطبيق سيطبق من تلقاء نفسه، أو سيطبقه أناس آخرون غيرنا، أو سنطلب له متعاونين من إخواننا في المشرق وخبراء من منظمة اليونسكو، وأن دورنا نحن قد انتهى بانتهاء المرحلة الأولى المتعلقة بالمبدأ، فإن الوقت قد حان لنذكر خطأ هذا الموقف"⁽¹⁹⁾.

يعتقد المفكر عبد الله شريط أن جنود العربية كتب لهم الانتصار في هذه المعركة المقدسة في مرحلتها الأولى، أي مرحلة المبدأ، والآن جاءت مرحلة التفكير والعمل في إيجاد أسلحة المعركة وتهيئة أسباب النجاح لها. وهنا يتساءل الأستاذ عبد الله شريط عن طبيعة هذه المعركة وطبيعة السلاح الواجب لها؟.

لا يجب في نظره أن نعول كثيراً من أجل النجاح في هذه المعركة على ما تقدمه الجهات الرسمية ممثلة في الحكومة ووزارة التربية والمفتشين وغيرهم من دعم مادي وما تصدره من قرارات، فهذا الدعم المادي والقانوني رغم أهمية فهو غير كاف، فالمفكر عبد الله شريط يعول على همّة معلمي العربية، فهذه الهمّة لها فاعلية في إنجاح عملية التعريب، وهنا نجده يقول لهم " أريد أن أقول بدون تحرج لإخواني المعلمين وأساتذة العربية، أنهم يجب أن يثوروا على أنفسهم، أعني أن يراجعوا كل الأساليب التي تعلموا بها هم العربية وأن لا يطبقوها في تعليم العربية لأبناء اليوم. وهذه الثورة لا تكون إلا برفع المستوى الثقافي العام لا في العربية والتخلص من

(19) - عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، المصدر السابق، ص 8.

أساليب عصور الانحطاط فقط، بل وأيضا برفع هذا المستوى الثقافي في ميادين علما النفس والتربية الحديثة وفي التاريخ العام وتاريخ الأدب وتربية الذوق الجمالي⁽²⁰⁾. والأستاذ عبد الله شريط لا يكتفي بهذا فحسب، بل يدعوهم إلى الإقبال على تعلم لغة أجنبية فمن خلالها " يطلون على تجارب وعقليات الأمم الأخرى في عصرنا الحديث، وعلى الثورات المتلاحقة التي تجري في العالم كل عام في هذا الميدان التربوي حتى أصبحت البشرية اليوم في هذا المجال التربوي تنقسم إلى جزئين: جزء يثور فيه كل جيل على الجيل الذي سبقه ولكنها ثورة إيجابية لا تحطم ما بناه الجيل السابق، بل تتجاوزه إلى ما هو أعلى وأبعد وأعمق، وقسم يعيش على فترات مئات الأجيال التي عاشت منذ آلاف السنين لم تهدم منه شيئا ولم تجدد منه جداراً ولم تزدد في بنيته غرفة أو طابقاً أو تفتح فيه حتى نافذة"⁽²¹⁾. فالأستاذ عبد الله شريط يوجه أصابع الاتهام للمشتغلين باللغة العربية و يدرجهم ضمن الجزء الثاني الذي ذكرناه آنفاً، أي الجزء الذي يفرض التجديد ويصد جميع الأبواب أمام التغيير ولا يحاول مواكبة الحضارة في زخمها وعنفوانها، بدليل " أنهم لم يحاولوا حتى تطوير شكل هذه الحروف المطبعية عما كانت عليه منذ عشرات الأجيال وآلاف السنين، فضلا عن محاولة تطوير قواعد اللغة عما كانت عليه أو إدخال فلسفة اشتقاقية جديدة إلى هيكلها حتى تصبح أكثر ثراء وطواعية"⁽²²⁾

(20) - المصدر السابق، ص 10.

(21) - المصدر نفسه، ص 11.

(22) - نفسه، ص 11.

هذه النصوص التي أوردناها آنفاً تدل على أن المفكر عبد الله شريط كان حدثاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فإذا كانت هذه الكلمة تحمل معنى التجديد فإن المفكر عبد الله شريط قد دعا المعلمين إلى التجديد في التعامل مع اللغة العربية وإحداث ثورة كوبرنيكية سواء في أساليب تدريسها، ومن ثمة مواكبة الحضارة في مناهج التدريس، أو في التجديد في حروفها المطبعية، وأيضاً تطوير قواعدها، كذلك دعا المعلمين إلى الإقبال على علوم العصر أو ما تعرف بالعلوم الدنيوية، والتفتح على ميادين علم النفس والتربية والتاريخ والفن وعلم الجمال، لأن هذه العلوم من شأنها أن تساعد المعلم في مهنته، كما حث المعلمين على الإقبال على تعلّم اللغات الأجنبية وعدم التعصب والاكتفاء باللغة العربية وحدها فقط، لأن ظاهرة تعلم اللغات أصبحت ضرورية بحكم أنها تطلّعوننا على تجارب الآخرين وتمكننا من الاستفادة من تراثهم الزاخر بالعلم والمعرفة. وهنا تبرز واقعية و موضوعية الأستاذ عبد الله شريط، فإذا كان يعيب على المفرنسين والفرانكوفونيين تجاهلهم للغة الوطنية والخط من قيمتها بدعاوي مختلفة، فإنه في المقابل يوجه سهام النقد اللاذع إلى فريق آخر ينعت بدعاة الجهل والظلام وأعداء الحداثة، وهو فريق المعربين الذين يقتصرون فقط على اللغة العربية ويهدفون من وراء التعريب، الذي يعتبرونه مقدساً، صد الأبواب أمام تعلم ودراسة اللغات الحية، فهم بسلوكهم هذا يقتلون العربية، أي يضرّون بها أكثر مما ينفعوها، ولهذا فهو يدعوا إلى محاربتهم ومنعهم من ذلك، فهذه الدعوات والنصائح التي وجهها للمعلمين تنم عن فكر حدثي متفتح.

إن المفكر عبد الله شريط عندما يدعو إلى التجديد فهو في نفس الوقت يدعو إلى الثورة على القديم، أي الثورة على أساليب التدريس التي لم تعد صالحة لهذا الزمن، وإلى إعادة النظر في صعوبة وتعقيد قواعد اللغة العربية ومحاولة تسهيلها على الطلاب، أيضا المفكر عبد الله شريط كان حدثياً ليس لأنه دعا إلى التجديد، بل لأنه أيضا لم يكن متعصباً للتيار العروبي الذي ينتمي إليه باعتباره خريج جامع الزيتونة، هذه المنارة العلمية التي يعود إليها الفضل في حفظ اللغة العربية من الزوال في فترة زمنية كان الاستعمار الفرنسي يتربص الدوائر باللغة العربية والدين الإسلامي. قلت رغم أنه خريج جامع الزيتونة ومع ذلك دعا بكل موضوعية علمية إلى تجديد وتطوير اللغة العربية وجعلها تساير روح العصر، لأنه عصر حائة وتجديد.

يفد الأستاذ عبد الله شريط الفكرة التي روجها، ليس فقط رافضي التعريب في الجزائر المستقلة حديثا، بل هي فكرة قديمة قدم الدراسات الاستشراقية، وأبرز مثال على ذلك المستشرق الفرنسي رينان، ومفاد هذه الفكرة هي أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة التطور العلمي والفني الحديث، فهذا الاتهام بالعجز لا يجب، حسب رأي الأستاذ، أن يوجه إلى اللغة العربية في ذاتها، بل يجب أن يوجه إلى أصحاب هذه اللغة، ولا يجد حرجا عندما يعلن بكل صراحة ووضوح " أننا نحن الذين قعدنا بهذه اللغة العجيبة عن التطور والرقى نظراً لاستعدادها للتطور، واستعدادنا نحن للإبقاء عليها كما هي. إننا نحن الذين أصبنا اللغة بالقعود عن التطور، وكل ما يوجه اليوم من تهم عن حق أو باطل، إلى اللغة العربية، إنما يوجه مباشرة إلى أبنائها العاجزين. إن اللغة العربية لو كانت لغة أمة أخرى

من الأمم النشيطة المتحررة من التزمّت لكان لها شأن آخر، بل ولكانت لهم أسرع قطار ينقلهم إلى العالم المتحضر⁽²³⁾. ولهذا يدعو الأستاذ عبد الله شريط إلى النهوض باللغة العربية، فمن غير المعقول أن نبذل جهوداً كبيرة للرفع من مستوى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونتنكر في الوقت ذاته للغة العربية ونعاملها على أنها شيء لا يقبل التجديد والتطور، ويؤكد الأستاذ على أنه يجب أن نعمل جاهدين من أجل الرفع بمستوى لغتنا إلى مصاف اللغات الحية ولا نكتفي بالدفاع العاطفي عنها فهي "مثل كل أجزاء حياتنا الأخرى في حاجة إلى إعادة نظر في أساليبها وتراكيبها وخاصة طرق تدريسها بطريقة ثورية حقيقية تقفز بها إلى ما نطمح إليه من مكانة بين الأمم، وما نريد أن يكون لها من مكانة بين لغات العالم الراقية. إننا ما نزال إلى اليوم على تقليد أجدادنا في النظر إلى اللغة العربية إزاء اللغات القديمة التي عايشتها في عصر نهضتها فكانت لغتنا تفوقها، كاللغة الفارسية والرومانية القديمة والهندية وحتى اليونانية"⁽²⁴⁾، ما نستخلصه من هذه الفكرة هو أن الأستاذ عبد الله شريط يرى أن مشكلة التعريب الأولى هي قصور همة أصحابها عن تطويرها وتجديدها وبث دماء جديدة في عروقها حتى يكون بمقدورها مواكبة التطورات الحضارية المذهلة الحاصلة في العالم. فالمفكر عبد الله شريط، في هذا النص يتساءل ضمناً عن سر تطور لغات مثل الفارسية والرومانية والهندية وحتى اليونانية التي كانت متخلفة في زمن ذروة ازدهار اللغة العربية، وهذا السر يكمن في نظر المفكر عبد الله شريط في مفهومي "الحدث" و"التحديث" اللذان أشرنا

(23) - المصدر السابق، ص 36.

(24) - المصدر نفسه، ص 36.

إليهما في بداية المداخلة، بمعنى أن هذه اللغات، في الوقت الذي كانت فيه تُطور حروفها وتُجدد قواعدها وتُدخل أساليب حديثة في تدريسها، وباختصار يمكن القول أنها كانت مواكبة لروح العصر الذي يتطلب التحديث والثورة على القديم، كانت اللغة العربية معادية للحدثة وتقف في وجه كل ما هو جديد، أي أنها بقية محافظة على طرق تدريسها القديمة، ومتمسكة بقواعدها كما وضعها عالم اللغة سيبويه لا تحيد عنها قيد أنملة، فلهذا السبب تخلفت ولذلك السبب تطورت اللغات الأخرى.

لكن السؤال المهم هو: كيف يكون هذا التجديد في كيان اللغة العربية؟ إن الجواب الذي يقدمه المفكر عبد الله شريط يكمن في أن التجديد والثورة في اللغة العربية يجب أن يبدأ من "قواعدها"، وإذا أردنا أن نعرف السبب فلنقرأ له هذا النص التالي: "إن المثقف العربي لم يتوصل اليوم حتى إلى أضعف الإيمان أو أحط درجات الثورة على نفسه، وهي أن يبدأ بالتخلص من الحشو الذي يثقل عنق اللغة العربية بقواعد تجريدية منطقية في الإعراب أصبحت تشكل اليوم أضخم عقبة في تعليم لغتنا لأبنائنا وتستنفد منهم أثمن الأوقات وأعزها في عصر هم أحوج ما يكونون فيه إلى صرف مواهبهم وأوقاتهم في تعلم كنوز المعرفة التي تنهبها الشعوب الحية نهباً، والتي بلغت الاتساع والتشعب والغزارة ما لم يعرفه تاريخ البشرية كله، وأصبحت سرعة التعلم اليوم تجعل الطفل الذي لا يتجاوز عشر سنوات في الشعوب الحية يعرف ما لا يعرفه "العالم" في الشعوب المنحطة، وفي عصر أصبح فيه الوقت الذي لا يستثمر في التعلم لا يعتبر وقتاً جامداً فحسب، بل وقتاً يرجعك للوراء أكثر فتزداد توغلا في التأخر حين تحسب أنك واقف

فقط" (25). إذن الطابع التجريدي المحض لقواعد اللغة العربية وعدم مسايرتها لروح الحداثة يشكل في نظره عقبة كأداء أمام تطورها ورقيا. ولكي يكون عملياً في طرح أفكاره، يدعونا إلى الاطلاع بأنفسنا على ما يدرسه التلاميذ من قواعد وستتحقق عندئذ من صدق أفكاره، وستأكد معه أن هذه القواعد التجريدية التي يعاني التلميذ كثيراً في تعلمها واستيعابها، والتي برأيه تأخذ منه وقتاً ثميناً، هي سبب جمود اللغة العربية. فهو يقول: "خذ أي كراس من كرايس أبنائنا في اللغة فستجد تسع صفحات من عشرة هي عبارة عن إعراب للضمائر البارزة والمضمرة أو المستترة في محل رفع ومحل جزم ومحل كسر، ويظل التلميذ يبحث عن هذه المستترات كلها أين هي، ولماذا اختفت، وما هي وظيفتها؟ وإذا كانت ترغب في أن تبقى مستترة ولا تخرج إلى الوجود أوتعلن عن وجودها فلماذا نبحت عنها ونعاملها كما لو كانت موجودة وحية. ولماذا نهتم بهذه الأشباح؟ وما هي الفائدة العملية التي تعود علينا من معرفة هذه المستترات؟ وما الذي يفيدني أن أعرف بأن القاضي إذا جاء فهو مرفوع ولكن الرفع فيه مضمّر في محل السكون، ولكن هذا السكون هو سكون في الظاهر فقط، أما الباطن فهو رفع؟ وقل مثل ذلك في آلاف الأسماء والأفعال، وأضرب حسابك كم يذهب من الوقت في هذه الفلسفة التجريدية على التلميذ الصغير، وكم تورثه من انحراف في التفكير" (26). فهذه القواعد الشديدة التجريد هي كالجثث المبعثرة في طريق النمو العقلي والتربوي الصحيح للطفل.

(25) - المصدر السابق، ص 12.

(26) - المصدر السابق، ص 13.

ما يمكن أن نستشفه من هذا النص هو أن أهم وسيلة للتعريب هي مراجعة الموقف من قواعد اللغة العربية التي نعلم بها العربية اليوم وأنها في اعتقاده لم تعد صالحة لأطفالنا وشبابنا. ولقد أشار من قبل مؤسس جمعية العلماء المسلمين الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى مشكلة جمود قواعد اللغة العربية عندما قال لشيوخ جامع الزيتونة: "لقد أتعبتم القواعد حتى صرتم كالقواعد (يقصد القواعد من النساء)، الشيء الوحيد الذي يجعل الأستاذ عبد الله شريط يتفائل بالنجاح في الثورة على قداسة هذه القواعد هو شعلة الروح الثورية التي مازالت متأججة في نفوس الشعب الجزائري، والذي استطاع دائما وعلى مدار تاريخه الطويل أن ينتصر في كل معاركه رغم قلة الوسائل المتاحة، كان يعوّض قلة السلاح بما لديه من مثابرة وعناد وثقة بنفسه تمكّنه من تجاوز الصعاب والانتصار عليها، وهو الآن أمام معركة من أشد المعارك، "لأنها ليست معركة تهادنية سهلة، بل هي إنشائية أكثر، هي معركة لا يهدم فيها عدواً، بل يهدم فيها جزءا من نفسه، ولا يثور فيها على المستعمر بل يثور على أجداده في سبيل أبناءه، ويهدم فيها أمسه المظلم لبيعته منه غده المشرق. أو بعبارة أصح معركة يتخطى بها قرون الانحطاط ليقبض بيده على أصالته الأولى في ميدان اللغة كما فعل بان باديس في الميدان الديني. إن كل ما نتخبط فيه اليوم من أحوال القواعد اللغوية هي من صنع قرون الانحطاط، من صنع عقلية التعقيد المنطقي التجريدي في اللغة كما كان في الدين سواء بسواء"⁽²⁷⁾. إن هذا النص طافح بالثنائيات المتناقضة التي تدل على جوهر الحداثة

(27) - المصدر السابق، ص 15.

والتنوير، ففي هذا النص نجد المفكر عبد الله شريط يدعو إلى البناء مقابل الهدم، وإلى الشروق مقابل الظلمة، وإلى التهيو للغد مقابل الأمس، وإلى الاهتمام بحاضر الأبناء في مقابل تاريخ الأجداد، ونجده يدعو دعوة صريحة إلى التجديد للتخلص من عصور الانحطاط، كما يحثّ على استبدال المنهج العلمي العملي التطبيقي والتخلي نهائياً وبشكل عاجل عن المنهج التجريدي في تعليم قواعد اللغة العربية الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمن.

بعد عرضه لمشكلة التعريب المشكلة الأولى في الجزائر والتي تتمثل في تجريد وجمود وقداصة قواعد اللغة العربية، يمر بعد ذلك مباشرة إلى تقديم الحلول ومن أهمها:

- تبني فكرة ابن خلدون في اعتبار اللغة وسيلة وليست غاية في حد ذاتها.

- أن نؤمن مبدئياً بضرورة هذه الثورة وبأنها حيوية لمستقبل لغتنا لمستقبل أطفالنا وشبابنا أي شعبنا المقبل.

- أن نبدأ منذ الآن، في نطاق القواعد الراهنة، بالتخفيف من تدريس هذه القواعد، و الاعتماد بدلاً منها على التطبيق، وهذا حتى لا نقع في فخ التجريد الذي جمد لغتنا، وذلك يكون بأن نعلم قاعدة أصولية واحدة في الأسبوع ونطبقها خمس مرات في النصوص والأناشيء والإملاءات والتمارين التطبيقية، بدلاً من أن نعلم الأطفال خمس قواعد في الأسبوع ولا يطبقون منها واحدة.

إن المفكر عبد الله شريط بقي وفياً لروح الحداثة التي يؤمن بها عندما قدم الحلول للنهوض باللغة العربية وجعلها لغة منافسة للغات الحية الأخرى، وهذه الروح تمثلت في الثورة على المناهج القديمة وتجديدها والاعتماد على المنهج العلمي

المعاصر والمتمثل في التطبيق وعدم التمسك بالمنهج التجريدي.

الحدث في المنهج:

لقد اعتمد المفكر عبد الله شريط على منهج حدثي في تحليل القضايا التي عرض لها. ومن خصائص هذا المنهج الاعتماد على العقل الهادي المحلل ونبذ العاطفة الطفولية كما يسميها، والأحكام المرتجلة. وهو في ذلك متأثر في تراثنا العربي الإسلامي بشخصيتين فكريتين هما الجاحظ وابن خلدون، فالأول في مجاله الأدبي المسلح بالثقافة العلمية، والثاني في مجاله الاجتماعي المسلح بالتجربة.

ففي المقال الذي كان عنوانه " الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي" يتساءل المفكر عبد الله شريط في حيرة بالغة عن مدى نفعية المنهجين اللذين أضحيا منتهجين من طرف المثقفين العرب أو من أوساط الشعب في تحليل القضايا التي تعرض عليهم، هنا يتساءل هل يعقل أن نعتمد ونحن في القرن العشرين، عصر الحضارة والرقى على منهجين لا يعطيان نتيجة ايجابية ولا يدفعان عجلة تقدمنا إلى الأمام. المنهج الأول هو منهج الفخر والمدح الذي توارثناه عن أجدادنا منذ العصر الجاهلي، والمنهج الثاني هو منهج النقد الذاتي. إن المنهج الأول تكمن سلبيته، في نظره، أنه تجاوزه الزمن، أما المنهج الثاني فتكمن سلبيته في "أنه قد يحطم طموحنا إلى المعالي ويشعرنا بأننا أصغر من حقيقتنا"⁽²⁸⁾، وفي كلتا المنهجين أي منهج المدح والهجاء ما زلنا، كما يقول، محرومين من الحكم العقلي الهادي المحلل. بعد أن رفض الأستاذ عبد الله شريط

(28) - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

هذين المنهجين، يدعو إلى ضرورة تبني المنهج الذي أرسى دعائمه كل من الفيلسوف الألماني هيجل وفيلسوف العربي ابن خلدون. فكلاهما يؤسسان الوجود الحقيقي على أسس عقلية، فهيجل يعتبر أن كل وجود عملي لم يسبقه درس فكري فهو صائر إلى الزوال، ولا يدخل باب الحضارة. أما ابن خلدون من ناحيته يعتبر الوجود العملي هو آخر مرحلة من الوجود النظري، هنا عمل ابن خلدون على تجسيد نظرية هيجل، أي ضرورة تجسيد الوجود العقلي قبل الوجود العملي، بحيث يكون الوجود الاجتماعي عند ابن خلدون " الذي لم يركب مطية الفكر إلى الوجود الاجتماعي فلا أمل له في الوجود الحقيقي" (29)، ولهذا السبب وحده فقط كرس ابن خلدون، كما يرى الأستاذ عبد الله شريط، كل جهده في فهم المجتمع العربي ذهنياً لأنه لاحظ أن هذا المجتمع بقي محروماً قبله من هذا الوجود الذهني الذي هو الوجود الحقيقي. وإذا كان الفكر الخلدوني يوصف بالواقعية " فهي هذه الواقعية الفكرية التي افتقدها المجتمع العربي قبل ابن خلدون، أي افتقدوا وجوداً مدروساً ومحللاً، ينتقل به أو يرتفع من الوجود العملي إلى الوجود العلمي المعقلن" (30). إن الغاية من الاستعانة بالمنهج الهيجلي والمنهج الخلدوني هو ضرورة إعطاء المكانة اللائقة للعقل في حياتنا الفكرية والعملية. ففي كل من الميدان الحضاري والسياسي والثقافي، يحدث تصادم كبير جداً، كما يرى الأستاذ عبد الله شريط، بسبب أننا نتقبل ما نستورده من منتجات مادية أو أفكار ونتعود عليه كما لو كان

(29) - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 146.

(30) - المصدر نفسه، ص 147.

شيئاً طبيعياً قبل أن، وهذا هو الأهم، نتلقاه فكرياً وندرسه ونفهمه.

إذا أخذنا على سبيل المثال كيف يفسر الأستاذ عبد الله شريط التصادم في الميدان الحضاري بين مظاهر الحضارة التي غزت حياتنا اليومية ومخلفات البداوة التي لا زالت المعشقة في عقولنا. فالرجل الذي يرتدي لباساً أوروبياً من آخر طراز وزوجته كذلك وقد أتى المستشفى في سيارة أنيقة وليس على ظهر بعير من أجل أن تضع له زوجته مولوداً، حيث تستعمل في عملية التوليد آلات حديثة، والطبيب المولد نال درجة الاختصاص في هذا الفن من المعاهد الأوروبية، والمحيط المادي الذي يغمر هذه العملية كله محيط حضاري تستطيع أن تنافس به أرقى المصحات في العالم المتحضر، ولكن التساؤل أين يكمن التصادم بين البداوة والحضارة في حياتنا الفكرية واليومية؟ الجواب يكمن في أن هذا الشخص الذي أحضر زوجته للولادة سيتجهم وجهه ويعلوه العبوس وقد يصل إلى درجة الشتم والتهجم على من يخبره بأن زوجته قد وضعت أنثى. فنحن في عالمنا العربي تجتمع عندنا البداوة الفكرية والحضارة المادية والإفراط فيهما معاً، " فنحن لا نرضى من مستوردات الحضارة الحديثة إلا بما كان من آخر المنجزات التقنية الآلية. وفي نفس الوقت لا نتمسك من تقاليدنا الموروثة إلا بما كان موغلاً في التأخر الفكري ولكننا بدون أي حرج أو شعور بالإثم نجمع النقيضين تحت سقف واحد وتشمله في الشخص الواحد نفس البذلة ونفس الجسم والفكر"⁽³¹⁾، إن المشكلة التخلف الذي نعيشه، كما يراه المفكر عبد الله شريط،

(31) - عبد الله شريط، معركة المفاهيم، مصدر سابق، ص 149.

هو هذا التناقض الصارخ بين حالة خلفنا الذهني والجمود الفكري وبين مواكبة التطور الحضاري الحاصل في عالمنا. وعندما يقارن الأستاذ عبد الله شريط بين حالة العرب ودولة الصين الشعبية، ويتساءل لماذا لا يوجد هذا التناقض الصارخ في الحياة الفكرية الصينية؟ فإن الجواب بسيط جداً وهو أنه يكمن في دور العقل في كلا الجبهتين: جبهة التراث وجبهة المعاصرة، يقول الأستاذ عبد الله شريط حول هذه الفكرة: "في الصين بذل مجهود فكري على الجبهتين: جبهة التراث التقليدي بالتنقية والتقييم ودرس ما هو قابل للحياة وما هو غير قابل للحياة. وجبهة المستوردات الأجنبية بالدرس والتقييم ما يصلح منها الإنتاج، وما هو للمتعة المادية وحدها"⁽³²⁾، فالصينيون قد استطاعوا إزالة التصادم الحاصل بين التراث التقليدي والمستورد المعاصر وذلك بفضل المجهود الفكري الكبير الذي قاموا به والذي يتمثل في إعمال العقل والتقييم الفكري بالتنقية وأخذ ما يلائمهم من كلا الجبهتين، حتى أن القضية عندهم لم تطرح كقضية تصادم، بل كقضية تكامل بين الجبهتين، وأبرز مثال معروف في العالم على هذا التكامل هو الجمع بين الطب التقليدي والطب الحديث. إن المشكلة في عالمنا العربي، حسب الأستاذ عبد الله شريط، تكمن في أن هذا المجهود الفكري الذي يقوم به رجال السياسة على المستوى الإيديولوجي، ورجال الفكر على المستوى الاجتماعي في دراسة الجانبين، أي الجانب التقليدي الذي هو مصدر الهوية والجانب المعاصر الذي هو مصدر القوة، غائب تماماً عن

(32) - المصدر نفسه، ص 150.

ساحتنا الفكرية، وهذا الغياب أدخلنا في دائرة التخلف والجمود، وأخرجنا من دائرة التاريخ.

الخاتمة

لقد كان المفكر عبد الله شريط مسكون بهاجس الحداثة في كل القضايا التي عالجها التربوية والاجتماعية والأخلاقية والإيديولوجية وغيرها، فهو بالرغم من أنه لم يؤسس لمشروع فكري عربي متكامل تغطي عليه الرؤية الحداثية شبيه بالمشاريع الفكرية العربية التي شهدتها الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر كالمشروع الفكري لدى الجابري مثلاً، حيث يلاحظ المفكر والمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله وذلك في معرض شهادته في عبد الله شريط "إننا نجده ملاحظاً واصفاً أكثر منه مؤسس لنظرية أو مفكراً عميق الجذور رائداً لجيل من الباحثين في مجال التربية السياسية وبناء الشخصية الإنسانية" والسبب في نظرنا أن الفترة الزمنية التي عاش فيها لم تسمح له بذلك، فهي فترة استعمار أولاً ثم فترة استقلال بعد ذلك وما خلفه الاستعمار من مشاكل ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية تتطلب حلول عاجلة، ومع ذلك فإن المفكر عبد الله شريط لم يقدم الحلول الجاهزة لهذه القضايا، أي بالاعتماد على التراث أو باستيراد حلول من الغرب كما فعل بعض المفكرين، بل تسلح بالنظرة العقلانية للأمور، مقلبا للقضية من جميع أوجهها، نابذاً أن تكون العاطفة أو الذاتية هي مصدر للحكم على الأمور، متقبلاً للنقد والرأي الآخر وبهذا المنهج - ما أحوجنا إليه في حياتنا الفكرية الراهنة - الذي أجلىنا بعض من جوانبه في هذه المداخلة قد ترك المفكر عبد الله شريط رحمه الله بصماته على مرحلة طويلة من تاريخ الجزائر المعاصر.